علم الإجتماع ومفهوم الثقافة

د. فؤاد شاهين

لقد تميز علم الاجتماع الحديث بشمولية موضوعه وبتعقيد هذا الموضوع، حتى ظن بعض المؤلفين أن علم الاجتماع لا وجود فعلياً له إلا في ربطه بين العلوم الاجتماعية الخاصة التي وحدها تجعل الانسان في مواجهة الوقائع الملموسة. فعلم الاجتماع لا يمكنه اذن أن يتناول الوقائع المحدّدة الا من خلال احد العلوم الانسانية، فهو مثلاً يدرس النظم الاجتماعية والاقتصادية من خلال علم الاجتماع الحقوقي وعلم الاجتماع الاقتصادي، ويدرس الدين وعلم النفس والثقافة من خلال علم الاجتماع الديني وعلم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع الثقافي أو سوسيولوجيا الثقافة. ولكن غني عن القول أن علم الاجتماع لا يمكنه ان يكون علماً واقعياً واختبارياً أو تجريبياً إلا بعلاقته مع العلوم الانسانية الأخرى التي تقدم له المواد الاساسية، وبالأخص علم التاريخ الذي يمكن علم الاجتماع من اجراء المقارنات التي تغنيه عن الطريقة التجريبية التي تجمد الوقائع فتجعلها بالتالي غير إجتماعية. فمن أهم خصائص الوقائع الاجتماعية انها تتغير وتتبدل باستمرار، فهي تاريخية.

إن هذا التشعب والتعقيد في موضوع علم الاجتماع دفع ببعض علماء الاجتماع الذين اعتمدوا الطريقة الجدلية في فهم الوقائع وتفسيرها الى اعتبار هذه الوقائع مندرجة في مستويات مترابطة فيما بينها (غورفيتش G. Gurvitch). هذه المستويات تنطلق من المادي الملموس (كالواقع الجغرافي) وصولاً الى المستوى النفسي والعقلي، مروراً بالتنظيمات الاجتماعية والتصرفات والأدوار والمواقف والرموز والقيَم.. فإذا توقف علم الاجتماع عند احد هذه المستويات، أو عند بعضها، فإنه يصبح علماً اجتماعياً خاصاً: فالواقع الجغرافي مثلاً تعالجه المورفولوجيا الاجتماعية، والواقع النفسي يعالجه علم النفس الاجتماعي...

فالثقافة التي تشكل أحدَ مواضيع علم الاجتماع، لا يقتصر وجودها فقط على احد هذه المستويات، فهي تندرج في جميع المستويات الاجتماعية، في المساحة المورفولوجية كما في المستوى النفسي والعقلي. لقد أضحت الثقافة لذلك موضوعاً لعلم اجتماعي خاص هو علم الأنام (الأتنولوجيا)، أو علم الاناسة الثقافية (الانتروبولوجيا الثقافية)، هذا العلم الذي يهدف الى معرفة الانسان معرفة شاملة وكلية، وهو بالتالي يدرس الثقافة بإعتبارها وسيلة اتصال اجتماعية، أي باعتبارها ظاهرة اجتماعية. فكل جماعة لها ثقافة خاصة، ولها بالتالي شخصية ذات خصائص اجتماعية. فالثقافة ليست فردية بل هي انتاج اجتماعي، مهما كان عطاء الافراد كبيراً؛ بهذا نجد ان العلاقة وثيقة بين علم الانام وعلم الاجتماع حتى لنكاد نخلط أحياناً بين علم الانام وعلم الاجتماع الثقافي، حيث لا يمكن للواحد ان يستمر دون الآخر. وهكذا جرى، في المراحل الاولى، صراع على الثقافة بين علم الاجتماع وعلم الأنام وعلم النفس. ذلك ان للافراد دوراً كبيراً في انتاج ونقل واستيعاب الثقافة من قبل المجموعة، كما ان الثقافة تشكل جانباً مهماً من شخصية الفرد، أو بالأحرى هي التي تجعل الاتصال بين الناس ممكناً. وقد دفع هذا الواقع الكثير من علماء الأناسة وعلماء النفس الاجتماعي إلى التحدث عن شخصية منوالية* لدى الجماعة تشكّل القاسم المشترك بين شخصيات مختلف الأفراد. وقد تكون هذه الشخصية المنوالية محدّدةً للسلوك الفردي وفارضة لحتمية اجتماعية ـ ثقافية معيّنة.

إلا ان الصراع بين هذه العلوم الثلاثة حول الثقافة هو بالحقيقة اشكالية خاطئة لأن التكامل واضح بينها: فالثقافة، موضوع علم الأنام الرئيسي، هي ظاهرة اجتماعية شاملة لا تنفلت من الطرائقية الاجتماعية. وهي، رغم اجتماعيتها وشموليتها، تتغلغل الى أعماق الأفراد ـ الأمر الذي يميزها عن الظواهر الاخرى ـ وتؤثر على شخصياتهم وتدخل في تركيبها. لذلك فإن معالجة سوسيولوجيا الثقافة لا يمكن ان تجري في اطار علم واحد مستقل خصوصاً وإن للثقافة تشعبات لا بدّ ان تستعين بعلوم اجتماعية اخرى من اجل فهمها. وبما ان الموضوع الرئيسي لبحثنا هو الثقافة، فلا بد من التوقف عند هذا المفهوم حتى نعرِّفه ثم نحدد الموضوع الذي يتناوله علم الاجتماع الثقافي. كل ذلك يجري في إطار عرض نتائج الابحاث في هذا المجال مع التوقف فقط عند الامور الاساسية.

١ـ في التعريف الثقافي

أما بشأن التعريف فإن له اهمية كبرى في تحديد حقول البحث والدراسة وفي تحديد اطار المفاهيم. فكل العلوم تنطلق من تعريفات أوّلية ترتكز على اختيار نظري مسبق. لكن هذا الاختيار النظري، اذا بقي جامداً ولم يتغيّر نتيجة للدراسات والابحاث الواقعية، يُفرِق العلم في لون من ألوان المعتقدية أو

* أو شخصية اساسية Personalité de base (p. b) او قاعدية

الدوغمائية، فلا نعود نرى في الوقائع إلا الامور التي نريدها أو التي وضعناها فيها، وليس الوقائع الموضوعيّة كما هي وكما تُفرَض على الوعي. لذلك لا بد للتعريف الأولي من أن يتكيَّف مع الوقائع والاكتشافات الجديدة، فيصبح بالتالي معبِّراً عن حقيقة هذا الواقع، وهو ما نسميه المفهوم. فالتعريف اذن، وبخاصة بالنسبة الى الوقائع الاجتماعية المتغيِّرة، لا يمكن أن يكون نهائياً يجمِّد الوقائع ويصبّها في قوالب، أو يحنّطها، بما يخالف طبيعتها المتطورة، لذلك فهو منفتح معرض دائماً لأن ينساق في الإطار الدينامي للثقافة أو في حركية المجتمع، فالاختيار النظري المسبق قد يكون ضرورياً لإعطاء تعريف، أو لمواجهة أية ظواهر اجتماعية أو انسانية، رغم محاذير الوقوع في الدوغمائية والتجميدية النظرية، لأن الانفلات من النظرية قد يدفع بالباحثين الى تخبّط لا نهاية له من التجريبية أو البراغماطبقية التي تعالج الوقائع المتواصلة والمتشابكة بتقطيعها وبعزلها عن الشمولية.

فالثقافة التي هي موضوع عدة علوم اجتماعية، تعرّضت لتدخلات كثيرة جعلت التعريفات تتشعب وتكثر حتى لم يعد بالامكان الاحاطة بها جميعاً. ونحن، بالطبع، لن ندلي بدلونا في هذا المجال، لأن التعريف الجديد لن يقدم شيئاً، وإنما سنعمد الى اجراء توفيق معيّن - رغم مساوىء التوفيقية - لنخرج بأسس واتجاهات للتعريف لا أكثر ولا أقل. يتّفق جميع علماء الأنام تقريباً على أن كلمة ثقافة تغطي مجمل العادات والتقاليد الانسانية، فهي مجمل التجربة الانسانية المتراكمة أو المكتسبة، ومجمل التصرفات التي يتعلمها الانسان الاجتماعي: هي كل ما يفرزه المجتمع من افكار واخلاق وقيم ومعتقدات يقدمها لعناصره فيتعلمونها ويتكيفون معها؛ فالطفل مثلاً يخضع لثقافة مجتمعه فيتعلمها، وأول مظاهر هذه الثقافة هي الحركات والاشارات والتعابير، وبعدها تأتي اللغة.

هذا. وفي معرض تعريف الثقافة يجري احياناً الخلط بينها وبين الحضارة؛ لكن الحضارة التي قد تتولّد من ثقافة معيّنة تتعدّى هذه الثقافة وتتجاوزها زمانياً ومكانياً، فالحضارة قد لا تعود ترتبط بمجتمع معيّن أو بقوم معيّن، فتشمل منطقة جغرافية بكاملها (قارة مثلاً). والحضارة في النهاية قد لا تلازم المجتمع، فهي تستمر عبر التراكمات الثقافية والآثار على انواعها بينما يكون المجتمع قد اندثر. فالحضارة اذن هي ذات طابع تاريخي وتراكمي، بينما الثقافة تتصل بالواقع الآني للقوم وان كان هذا الواقع يستند الى عمق تاريخي، ذلك أن تاريخية الثقافة هي من تاريخية الجماعة المتصلة بها. إن الثقافة بهذا المعنى تعبير عن الجماعة، حتى أن البعض ذهب الى القول بأنها نمط معيشة للجماعة لا أكثر ولا أقل.

٢ - تراكيب الثقافة

وفي هذا السياق ايضاً جرى معالجة الثقافة بالارتباط أو بالتعارض مع الطبيعة: فاعتبر البعض ان الثقافة تشكل جزءاً من الطبيعة، وقال البعض الآخر بأن لا تواصل بين الطبيعة والثقافة. ولكن مهما يكن من امر فإن الثقافة ذات طبيعة انسانية: فالانسان يعيش في وسط طبيعي له علاقة بوجوده، فهو

ذو تركيب مكاني؛ وهو يعيش ايضاً في التاريخ، له ماض ومستقبل، فهو اذن ذو تركيب زماني؛ والانسان يعيش في مجتمع يفعل فيه وينفعل به، فهو ذو تركيب اجتماعي، فالذي يفرق بين الانسان والحيوان هو الاتحاد والتكامل بين هذه التراكيب الثلاثة (المكاني والزماني والاجتماعي) التي تشكل مجتمعة الثقافة.

وبما ان الثقافة مرتبطة بالانسان وبالمجتمع لا يمكن تعريفها على انها مجموعة معارف أو قيم أو عادات أو معتقدات أو نظم؛ فالثقافة ليست محتوى، الثقافة تدل على تفاعل معيّن، لذلك فهي قد تعرّف بأنها مجموعة تراكيب متفاعلة داخل القوم، أو في علاقة القوم بأقوام اخرى. فالتفاعل يُغني الثقافة الدينامية التي تولّد التناقضات، فالثقافة مثلاً هي عامة وخاصة في الوقت نفسه: عامة لأن تراكيبها موجودة في كل مجتمع، وخاصة لأن كل مجتمع له نمط خاص في ممارسة هذه التراكيب او في التعامل معها، او في سيطرة احداها. فقد يكون تركيب اللغة عند بعض المجتمعات أقوى من غيره، أقوى من التكنولوجيا مثلاً، وقد يكون التركيب الديني مسيطراً على التراكيب الاخرى. وخلاصة القول ان في كل قوم تأكيداً على تركيب واحد أو اكثر، دون ان يعني ذلك اهمال التراكيب الاخرى. اما على صعيد التطور فإن كل التراكيب متطورة وإنْ بنسب متفاوتة، وقد يؤثر تطور البعض على تطور التراكيب الاخرى. اما التراكيب الثقافية فهي التالية:

أ ـ **التكنولوجيا**: وهي تشمل كل الآلات والأدوات التي يستخدمها الانسان في الزراعة والصناعة وفي وسائل الحروب، وتمتد ايضاً الى تقنيات الجسد، لأن الانسان لم يستخدم جسده مرة واحدة. لقد اكتشف الانسان جسده على مرّ الاجيال، واكتشف ان باستطاعته استخدام بعض وظائف جسده في امور متعددة: اقتصادية أو متعية (وظيفة الأيدي والأصابع والأعضاء الاخرى، الرقص، الغناء، اللعب...). فالتكنولوجيا تتطور بوتيرة اسرع من تطور التراكيب الاخرى. وهناك تقنيات اسرع تطوراً من تقنيات اخرى (التقنيات الحربية اسرع تطوراً من التقنيات الزراعية مثلاً)

ب ـ **اللغة**: وهي بمعناها الاجتماعي ـ الثقافي لا تقتصر على اللغة الكلامية، بل تشمل الاشارات والرموز والدلائل ووسائل الاتصال الاخرى، وقد اعتبرها البنيانيون أساس الثقافة، فكل شيء في الوجود هو لغة عندما يدخل في العلائق الاجتماعية، فاللغة تعطي الاحساس بالانتماء الى القوم. هذه الشمولية في اللغة تجعلها تابعة في تطورها للتراكيب الاخرى: اللغة في التكنولوجيا مثلاً لا تتطور الا اذا تطورت التكنولوجيا.

ج ـ **التركيب الاجتماعي**: الذي يشمل العادات والتقاليد والتنظيمات على انواعها: الحقوقية، والاقتصادية، والسياسية، وتنظيمات القرابة والعلاقات المختلفة. ان التركيب الاجتماعي أبطأ تطوراً من اللغة والتكنولوجيا، ولكن لا شك في أن تطور بعض التقنيات قد ينعكس على هذا التركيب فيدخل

اليه التطور، من خلال تغيير البنية الاقتصادية. على أننا نجد أحياناً بنىً اجتماعية قديمة تتعايش مع التكنولوجيا الحديثة. وفي بعض البلدان كما في افريقيا مثلاً، أدى التطور التقني الى نوع من التكسّر على الصعيد الاجتماعي، وذلك نظراً لسرعة وضخامة التحولات التقنية.

د ـ **التركيب المعتقدي والديني:** وهو يشمل الى جانب الدين جميع اشكال المعتقدات والبنية الاسطورية لدى القوم. وهذا التركيب قد يحوي عمقاً معيناً لا يمكن للتراكيب الاخرى ان تبلغه، وهو المستوى الايماني أو مستوى الاسرار، ويمكن للاخلاق ان تندرج ايضاً في مستوى هذا التركيب، او بالأحرى هي الجامع بين المعتقدات والتركيب الاجتماعي. ولكن لا شك في ان الدين في بعض المجتمعات أو في بعض حقبات التطور يرتبط بالنظام الاجتماعي، كما هو الحال في عبادة الاجداد أو في الديانات الافريقية التي أصابها التكسّر عندما تكسرت البنية الاجتماعية ـ الاقتصادية.

هـ ـ **التركيب الجمالي:** وهو يشمل الفنون والآداب أو الرؤية العامة إلى الكون من خلال الايقاع والشكل. والتركيب الجمالي يندرج في جميع التراكيب الثقافية. وهو يتطور بسرعة لارتباطه بالتكنولوجيا واللغة اكثر من ارتباطه بالمجالات الاجتماعية والاعتقادية، فالارتباط بالتكنولوجيا يطور الجمال الوظيفي اكثر من تطوير الجمال التصويري؛ كما ان إدخال كلمات جديدة على اللغة يطور الرؤية العامة إلى الكون التي هي اساس الجماليات.

٣ ـ الثقافة والمجتمع

نستنتج اذن ان الثقافة شاملة ومعقدة ومترابطة التراكيب، وبتعبير آخر، إن هذه التراكيب تنصهر في بوتقة ثقافية واحدة متماسكة لا مجال لتفكيكها الا اذا جرى تفكك القوم بالذات. وهو ما يردنا الى اجتماعية الثقافة حيث ان البعض يعتبر ان الثقافة مستقلة عن الانسان، مفروضة عليه، بينما يعتبرها البعض الآخر حقيقة نفسانية: فالثقافة هنا ليست جزءاً من مظاهر الانسان، كما انها ليست شيئاً مستقلاً عنه، ذلك ان الانسان هو الذي يخلق الثقافة ويغيرها، فالمجتمع والثقافة مفهومان مترابطان. الثقافة اذن ذات بعد نفس ـ اجتماعي، لذلك يمكن تعريفها من هذه الزاوية بأنها **العنصر المكتسب من السلوك الانساني**، فتعلّم الثقافة يجري في كل جيل على شكل شريط يؤدي الى دمج الفرد في المجتمع. فإذا كان ثمة حاجات مشتركة بين الناس فإن امكانيات إشباع هذه الحاجات تتغير بحسب الثقافات: فالنوم مثلاً حاجة مشتركة بين جميع البشر ولكن كل قوم ينام بطريقة خاصة (منهم على الارض، منهم على حصير، وبعضهم على سرير، والبعض الآخر يستخدم مخدة وسواه يكتفي بحجر او بخشبة او غير ذلك...) ولكن من الملاحظ ان الفرد يحتفظ ببعض الاختيار وبخاصة عندما يبلغ سن الرشد.

هنا يمكن ان نتساءل عن اهمية التفاعل بين الثقافة والمجتمع والفرد، مما يقودنا الى التكامل بين علم الأنام وعلم الاجتماع وعلم النفس. هذا التفاعل قد يجري بالنسبة الى بعض المؤلفين على مستوى الشخصية حيث تعتبر مجالاً لالتقاء الثقافة والمجتمع والفرد: هناك طبعاً مناخ اجتماعي ـ ثقافي تتحرك فيه الشخصية الفردية مما يدفع الى الاعتقاد بوجود شخصية ـ نموذج داخل كل مجتمع تتكون من التفاعل بين الثقافة والمجتمع والفرد. ولكن ما هي طبيعة هذه الشخصية؟ هل هي الشخصية الاساسية التي يتكلم عليها كاردينر (Kardiner)؟ صحيح أن اعضاء جماعة معينة يتعلمون ويتقاسمون مجموعة من الافكار والمشاعر والقيم والافعال، إلا أنها لا يمكن أن تشكل الشخصية الاساسية؛ بينما يمكن الاتفاق على عبارة الشخصية الوسيطة، أي متوسط الشخصيات القائمة في هذه الجماعة، فالابتعاد عنها والاقتراب منها يصبحان معقولين لأنها ليست شخصية واقعية بل نظرية، شأن الوسط الحسابي.

نعود الى العلاقة بين الثقافة والمجتمع، نلاحظ ان المستوى الثقافي في الظاهرة الاجتماعية الشاملة ليس مستوى بسيطاً بل هو مستوى مركب ويشكل كلاً مترابطاً، وإننا نجده على جميع مستويات الواقع الاجتماعي. والفرد يعيش في مناخ ثقافي شامل يطال كل جوانب حياته المادية البيولوجية والاجتماعية والنفسية ـ الذاتية.

الا ان ارتباط الثقافة بالمجتمع طرح عدة مشكلات لا يزال النقاش دائراً حول بعضها حتى اليوم. واهم هذه المشكلات مسألة ما اذا كان لكل جماعة ثقافة خاصة داخل المجتمع الكبير، وأن كل الجماعات والفئات الاجتماعية تشارك في ثقافة قومية واحدة. لقد جرى النقاش في هذه المسألة حول الطبقات الاجتماعية في المجتمعات الحديثة: فالماركسية تعتبر الطبقات الحديثة فئات اجتماعية ذات بنية، وان كل طبقة في صراعها مع الطبقات الاخرى، تعمل على السيطرة على المجتمع او على الأمة لتفرض عليها ثقافتها الخاصة المميزة عن ثقافات الطبقات الأخرى؛ إن الماركسية تقول بأن لكل طبقة ثقافة خاصة لا يمكنها ان تشكل الثقافة العامة للمجتمع الا في حالات التكون الطبقي الاولى؛ ولكن عندما تعي الطبقة نفسها، تعي مقدرتها على انتاج ثقافة خاصة بها فتقوم بانتاج هذه الثقافة التي تستخدمها في الصراع ضد الطبقات الاخرى. في مقابل هذه النظرة الماركسية هناك نظرة اخرى يقول بها بعض علماء الاجتماع امثال تورين (Touraine) الذي يعتبر ان المجتمع الواحد، او القوم الواحد، ليس له إلا ثقافة واحدة تساهم فيها الفئات والطبقات بجانب معين، فالثقافة الخاصة داخل المجتمع ليست إلا جزءاً مكملاً في الثقافة القومية الواحدة، والصراع الثقافي بين الفئات والطبقات هو صراع تكاملي من اجل تطوير هذه الثقافة الواحدة.

وهكذا يتضح ان الثقافة، بحسب تراكيبها التي مر معنا ذكرها، هي نمط معيشة للجماعة القومية او للمجتمع. فالمجتمع الواحد لا يمكن ان يحتوي على ثقافات متعددة الا اذا كان يتكون من أقوام

متعددة، لأن الثقافة هي لغة المجتمع القومي، وهي تمكّن من الحوار بين جميع الذين يعرفونها.

وبما أن الثقافة ترتبط اذن بالمجتمع فلا بد من أن تخضع للطرائقية الاجتماعية، وأهم المبادىء الطرائقية هي الشمولية والتغيّر والتاريخية. فالثقافة في المجتمع شاملة ومعقدة نجدها في جميع المظاهر الاجتماعية وعلى جميع المستويات في الواقع الاجتماعي: فهي على المستوى الجغرافي والديمغرافي والادواتي، لأن تنظيم البيئة والتعامل مع الطبيعة والمساحة الجغرافية كل ذلك يجري بناء على المعايير الثقافية السائدة في المجتمع: فشكل البناء مثلاً وتنظيم المدن والشوارع هي نتيجة مباشرة للفن المعماري الذي يتذوقه المجتمع. والثقافة نجدها على المستوى التنظيمي وفي الأدوار الاجتماعية وفي المواقف والرموز والقيم الاجتماعية (ليس هنا المجال بالطبع لتفصيل هذه الطرائقية الاجتماعية).

٤. الثقافة وموضوعات التغيّر الاجتماعي

ان التغير الاجتماعي هو من طبيعة كل الوقائع الاجتماعية التي تختلف درجة تغيّرها بحسب المجتمعات والتراكيب. وانطلاقاً من هذا التغيّر تصبح طريقة دراسة الثقافة طريقةً خاصة لا يمكن ان تتحول الى الطرق العلمية المتبعة في العلوم الطبيعية كاستخدام السببية والتجريبية: فنفس الأسباب قد لا تؤدي الى نفس النتائج على صعيدي المجتمع والثقافة. وقد تكون الطرائقية الجدلية وسيلة أفضل من غيرها لادراك تفسير الوقائع المتطورة والمتغيرة. وبهذا المعنى تلتصق الثقافة بالتاريخ وتصبح في كل فترة فريدة من نوعها، وان كانت على علاقة جدلية بالوقائع السابقة. من هذه الزاوية ساهمت الطرق المستخدمة في دراسة الثقافة وفي علم الأنام، وفي تطوير الطريقة الاجتماعية، وبخاصة طرق التحقيقات، كما هو الحال مثلا في التحقيق حول القرابة والعلاقات القرابية، وفي التحقيق السكني والاقتصادي.

ولكن، رغم تطابق الطرائقية على الثقافة، فان بعض الطرق تعتبر أكثر ملاءمة للثقافة من الوقائع الاجتماعية الاخرى. فقاعدة الموضوعية مثلا تطبق على الثقافة اكثر من تطبيقها على الوقائع الاجتماعية، وكذلك قاعدة المحسوس او الملموس، لذلك فإن وصف وتصنيف الثقافات وبناء النماذج الثقافية هي من الطرق المفضلة في علم الأنام، وبخاصة فيما يتعلق بالتراكيب التكنولوجية والاجتماعية والجمالية: فوصف الوقائع الثقافية وتجميعها وتبويبها وتصنيفها يشكل القسم الأهم والأكبر من عمل علماء الأنام الذين يقضون السنوات بين الأقوام يعيشون معهم ويتعرّفون إلى تفاصيل حياتهم.

بعد هذا البحث في مفهوم الثقافة وفي علاقتها الوثيقة بعلم الاجتماع، لا بد من التوقف عند الأبواب التي تتناولها سوسيولوجيا الثقافة. ان سوسيولوجيا الثقافة تعالج بالدرجة الاولى علم اجتماع المعرفة: فالمجتمعات لها وسائل خاصة لبلوغ المعرفة وعندها أساليب محددة لربط الأسباب بالنتائج، وتملك أدوات فكرية وعقلية خاصة لتفسير الوقائع وفهمها؛ كلها بالطبع، تتعلق بالبنية المعرفية أو بالحقل المعرفي

لهذه المجتمعات، ولا مجال هنا للاستطراد اكثر من ذلك لأن هذه الأمور تشكل موضوعاً خاصاً لعلم محدد. ولكن قد تبدو الأمور أوضح عندما نعلم ان المعارف تشمل الأفكار والايديولوجيات والاعتقادات القانونية والاخلاقية والفلسفة والعلوم والتكنولوجيا، الخ... وكلها تشكل جزءاً من الثقافة الاجتماعية وتختلف من قوم إلى قوم.

وتعالج سوسيولوجيا الثقافة أيضاً علم اجتماع اللغة: لأن الأشكال اللغوية ووسائل الاتصال الكلامية او الكتابية والرموز تتوقف اصلا على المجتمع أو على القوم. ان اللغة وظيفة اجتماعية محددة تؤمن التواصل والتفاعل والتبادل داخل القوم، كما انها تؤمن التواصل التاريخي لشعب من الشعوب. واللغة تتطور بارتباطها بالمجتمع وبالتراكيب الثقافية الاخرى. وقد ذهب بعض البِنيانيين الى أكثر من ذلك في شتى أبْواب العلوم الاجتماعية والانسانية، ذهب الى اعتبار ان كل الظواهر الاجتماعية، الظواهر الثقافية وحتى النفسية، تشكل لغة تحتل مركزاً مهماً في عملية الاتصال، فهي جميعها يمكن ان تدخل في إطار الدَّال والمدلول.

ومن ضمن سوسيولوجيا الثقافة أيضاً، لا بد من معالجة علم اجتماع الفن والأدب، وهو ما يمكن ان يندرج تحت باب الجماليات، لأن معايير الجمال على اختلافها: في الرسم والنحت والموسيقى والأدب والأزياء وكل المظاهر الفنية، هي بالدرجة الأولى معايير اجتماعية لأنها تعبر عن ذوق الجماعة وعما يستسيغه اعضاؤها في مرحلة معينة او في نطاق معين. لا شك في أن هناك دلالات اجتماعية، متعلقة بالتطور وبالعصر، لنشوء المدارس الفنية والأدبية.

وتعالج سوسيولوجيا الثقافة أيضاً علم الاجتماع الديني، او الجانب المتعلق بتنظيم معتقدات القوم وأشكال الإيمان والخرافات والأساطير: ان الممارسات الدينية والشعائر والطقوس ترتبط بل وتنبثق من خصائص الأقوام الثقافية، لأن نفس المعتقدات عند شعوب مختلفة تؤدي الى ممارسات مختلفة. بالطبع هذه الممارسات تتعلق بالتراكيب الثقافية الأخرى، بالتنظيم الاجتماعي، بمجموعة الرموز وبمستوى الرمزية، وحتى بالتكنولوجيا والفنون.

هذه اذن بعض الأبواب المحددة التي تعالجها سوسيولوجيا الثقافة، وهي كما يبدو تتصل بالوقائع الثقافية المحددة والملموسة. على رغم ان وجهات النظر الطرائقية تؤثر على هذا التحليل الثقافي او ذاك. ولكن بالاضافة الى هذه المواضيع تعالج سوسيولوجية الثقافة مسائل نظرية اخرى تتعلق بخصوصية الثقافة وفرادتها وتراكمها المؤدي الى تكون الحضارة او الحضارات، كما تعالج أيضاً انفتاح الثقافة وتفاعلها مع الثقافات الاخرى ومسألة التنافق المتكافيء او غير المتكافيء الذي يؤدي الى الارتهان الثقافي. وهو ما سوف نعالجه فيما يلي حول، البنية الثقافية والبنية الاجتماعية، ثم دينامية الثقافة وأواليات التغير.

٥. بنية الثقافة وعناصرها

فاعتبار الثقافة بنية يجرنا بالضرورة الى معالجة مفهوم البنية والطرائقية البنيانية. هذه الطرائقية تعتبر ان المظاهر الملموسة من الثقافة لا تكفي لادراك طبيعة وتعقيد هذه الثقافة، لأن كل مظهر هو في الأساس معقَّد يرتكز على مجموعة علاقات بين مجموعة عناصر مكونة للمظهر، منها ما هو خاضع للملاحظة ومنها ما يحتاج ادراكه الى عملية تحليل. «فالبنية اذن هي كلٌ يتألف من عناصر متماسكة، بمعنى ان كل عنصر يتعلق بالعناصر الأخرى ولا يمكنه ان يكون ما هو عليه الا بعلاقته مع هذه العناصر الأخرى». فالكلمة هي بنية تتألف من مجموعة عناصر متماسكة: الأحرف والأصوات والمعنى، فإذا تغير أحدها تغيرت الكلمة؛ والممارسات الدينية تشكل بنية، ولا يمكن لطقس من الطقوس ان ينفصل عن هذه الممارسات الا في حال تغيير كامل لبنية الممارسات.

يتضح من هذا المفهوم العام ان الثقافة تشكل بنية تتدامج عناصرها بشكل يدل على خصوصيتها وفرادتها والتصاقها بالبنية الاجتماعية المرتبطة بها ارتباطاً جدلياً من التأثير والتأثر المستمرين. لكن هذه الشمولية البنيانية في الثقافة تجعل من المستحيل معالجتها دون عملية تحليل هي بدورها بنيانية: فكل تركيب ثقافي هو في النهاية مجموعة هائلة من العناصر المتفاعلة فيما بينها بشكل او بآخر. وقد حاول بعض البنيانيين ايجاد العنصر الثقافي الأساسي الذي تتكون منه البنية، وهو تعريفاً اصغر وحدة ثقافية يمكن تحديدها او بالأحرى هو «الذرّة» الثقافية، وهو ما اصطلح على تسميته السمة الثقافية. لكن تحديد السمة يجب ان يتم في إطار معين وليس بشكل منقطع، فالسمة ليست مطلقة أو مستقلة، فإذا استطعنا تحديد السمة الثقافية، لا بد من تحديد الإطار لهذه السمة؛ هناك إذن مرجع دائم يجب ان نعود اليه. كذلك فإن تحديد السمة لا يكون من خارج البنية الاجتماعية او من الزاوية الموضوعية وحسب، بل هناك جانب ذاتي يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار، فالمراقب الخارجي، الغريب عن مجمل الثقافة، لا يستطيع الا ان يقوم بجمع السمات دون ادراك ارتباطها العقلي في البنية، من هنا فإن الدراسات الاوروبية او الغربية لثقافات الأقوام الأخرى لا يمكن ان تتسم بالشمولية المطلوبة لأنه ينقصها جانب ذاتي مهم، وهو المعنى الذي تتخذه السمة في تداجها مع السمات الأخرى ومع البنية بشكل عام. هذا الاعتبار يجعل الطرائقية البنيانية صعبة التطبيق على كل الثقافات، مما دفع بالبعض الى اعتبار السمة الثقافية كأداة مفهومية للبحث لا حقيقة واقعية، وهو ما دفعهم أيضاً الى تخطي هذه السمة الى واقع عياني وملموس هو المعقَّد الثقافي.

فالمعقَّد الثقافي هو مجموعة سمات متعلقة ببعضها البعض، تحدد هذه العلاقة معنى كل سمة ومعنى الارتباط فيما بينها. فهذا المعقَّد يتجه لاعطاء الثقافة شكلاً خاصاً، هو النموذج الثقافي. فالمعقَّد اذن هو

الإطار الذي تتحدد فيه السمة، وهو الواقع الثقافي بذاته، فالثقافة لا تعود تتكون من سمات نظرية بل من معقّدات واقعية تدخل على البنيان الثقافي المعنى الذي سوف يتحدد في النموذج وفي إطار مساحة ثقافية معينة في منطقة جغرافية معينة. اما النماذج الثقافية فهي الأشكال التي تتخذها السمات الثقافية أو المعقدات عندما تدخل في نمط سلوك الأفراد الذي يكوّن نمطاً خاصاً للحياة في جماعة معينة. وهذا ما يجعل هذه النماذج ذات وجهين: وجه موضوعي يتعلق بالخصائص الخارجية لهذه النماذج، ووجه ذاتي نفسي يتعلق بسلوك الانسان أو الفرد تجاه هذه الخصائص الثقافية. فالوجه الموضوعي قد يكشف الوجه الذاتي احياناً وقد يطمسه احياناً اخرى. من الملاحظ اذن ان هناك علاقة وثيقة بين النموذج الثقافي والسلوك: فالنموذج هو الذي يأمر السلوك ولكن ملاحظة مجمل التصرفات قد تؤدي الى استخلاص النموذج اذا كنا خارج النظام الثقافي. وهكذا يعتبر البنيانيون، وعلى رأسهم ليفي - ستروس (Lévi-Strauss)، ان معرفة النموذج تؤدي بنا الى توقع سلوك الافراد في النظام الثقافي.

٦. أواليّات التغيُّر الثقافي

الا انه رغم أهمية الطرائقية البنيانية يبدو انها لا تأخذ بعين الاعتبار مسألة التغير والديناميكية، لا مسألة النسبية الثقافية. في الحقيقة لا وجود لثقافة جامدة، فهي ملتصقة بجماعة معينة، لذلك فهي تخضع لتغيرات متعددة شأن التغير الذي يطرأ على الجماعة بالذات. اننا نملك دلائل كثيرة على التغير الثقافي إما في الاكتشافات والآثار وإما في الواقع الاجتماعي وإما في التاريخ. فالتحليل البنياني يمكنه ان يلاحق التغير الثقافي في الإطار التاريخي لأن البنية ليست آنية بل تاريخية. وتجميد الثقافة ما هو الا وسيلة لدراستها، لأن دراسة المتغيرات صعبة للغاية.

لقد اعتقد بعض علماء الثقافات وعلماء الاناسة أن التغيرات الثقافية ليست بالشيء الذي يذكر، فهي طفيفة جداً لا تطال الا الامور السطحية، لذلك فإن الثقافة حتى تخضع للدراسة يجب ان تؤخذ في حالات ثابتة. فهؤلاء العلماء استندوا بآرائهم الى الثقافات البدائية التي قاومت التغيرات التحديثية رغم سهولتها وبساطتها؛ فالتغير الذي لحق بعض تراكيبها بقي على السطح، وما لبث ان انهار عندما انهارت البنى السياسية القمعية التي فرضته. فهذه الثقافات البدائية «البسيطة» لم تشهد الا عملية تراكم. الا ان مفهوم البساطة والتعقيد الذي استند اليه علماء الأنام ليس معياراً صالحاً لتصنيف المجتمعات والثقافات، وهو يخفي موقفاً احتقارياً تجاه الثقافات التقليدية البدائية التي جرى تقييمها بالقياس على الثقافة الاوروبية (Ethnocentrisme). فمفهوم الثقافة كما بلورناه لا يمكن ان يرتضي هذا التصنيف، لأن كل ثقافة مهما كانت الجماعة التي تحملها بدائية تحتوي على التراكيب المذكورة أيضاً وهي على قدر من التعقيد. بحيث لا يستطيع الأجنبي فهم هذه الثقافة والتعمق في غناها الذي قد لا يُحدّ: ان

الثقافات التقليدية قد ولدت حضارات لا تزال معالمها قائمة حتى اليوم، وبعض معقداتها قد ادخلت الى الثقافات الحديثة.

ازاء هذه النظرة شبه التجميدية للثقافة على سلّم من القيم والمبادىء، قامت نظرة تغييرية مطلقة تعتبر ان الثقافة تتغير وتتبدل باستمرار بشكل لا يمكن ان تقوم معه اية دراسة. هذه النظرة تعتبر ان جميع مظاهر وتراكيب الثقافة تتغير على نمط واحد وبالسرعة ذاتها. وهذا طبعاً غير صحيح، وهو ما لاحظناه بالنسبة الى التراكيب: فعلى الصعيد التكنولوجي قد يكون التغير أسهل وأسرع منه على الصعيد المؤسسي او التنظيمي، والتغير في المجتمعات الرأسمالية أسرع من التغير في المجتمعات التقليدية القبلية او الاقطاعية.

على كل حال، ان التغير الثقافي لا شك فيه. وهو الذي يدخل الحياة والحركة الى الثقافات والمجتمعات. ولكن أسباب هذا التغير قد تكون ذاتية تنبع من داخل الشعوب او تأتي من جراء احتكاك الأقوام. لقد طرح التغير الثقافي مشكلات كبرى في المجتمعات ادى بعضها الى انقلاب كلي في اشكال هذه المجتمعات، وأدى بعضها الآخر الى زوال او اندثار بعض الأقوام؛ وهذا ما تعالجه سوسيولوجيا الثقافة من خلال تسليط الأضواء على أواليّات التغير وما تطرحه على صعيد المجتمعات، وصعيد العلاقات الداخلية، وصعيد الاتصالات بالمجتمعات الاخرى. فالتغير الثقافي يجري اذن بأواليّتين، إما من داخل القوم: بالاختراعات والاكتشافات، وإما بالاستعارة من ثقافات أقوام أخرى؛ وقد تكون هذه الاستعارة ناتجة عن عملية اختيار وتفاعل او عن عملية قهر وتسلط، وهو ما سوف نحاول ان نعالجه فيما يلي:

□ ان **الاختراع** على صعيد الثقافة بداية شيء ما، قد يكون شيئاً مادياً ملموساً وقد يكون تصرفاً او سلوكاً او تنظيماً او مؤسسة او طقساً... وهذا يدل على ان الاختراع لا يعني التركيب التكنولوجي وحسب. وهذه البداية تبدو جديدة تماماً عما سبق، الا ان هذا الجديد هو في الحقيقة جديد نظرياً، لأن كل اختراع لا ينبثق فجأة بل ينتج عن اختراعات صغيرة تحضّر له، كما ان الجديد في الاختراع هو كذلك بالنسبة إلى الوضع السابق او الوضع المحافظ. ولكن مهما كان التغير الناجم عن الاختراع نسبياً فإن فيه بعض الأوجه المطلقة او الجديدة. بالاضافة الى ذلك فإن الامور الجديدة في الاختراع لا تلغي الأمور القديمة بل تضاف اليها على شكل تراكمات: فالاختراع لا يُحدِث قطعاً ثقافياً وانما يعبر عن استمرارية معينّة، وهو عملية اجتماعية وان كان للأفراد ادوار أساسية فيه، لأن المعلومات الجزئية التي تحضر له مستقاة من الجماعة، وعلى المجتمع ان يكون مهيئاً لتقبل الاختراع او ان يكون بحاجة إليه. فالتحضير للاختراع يعني ان هناك حتمية اجتماعية ـ تقنية تحدده، وبالتالي يجب ان تتوفر بعض العوامل حتى يظهر الاختراع ويندمج في ثقافة القوم. ومن ذلك العامل الاقتصادي الذي يعني أن

الاختراع يجب ان يستجيب لحاجة معينة عند القوم؛ وعامل التكيف، أي ان يتكيف الاختراع مع الواقع التقني القائم؛ وعامل القوة، بحيث يتغلب الاختراع على عوامل المقاومة في المجتمع.

□ لكن الاختراع وحده لا يكفي لاحداث التغير الثقافي ـ الاجتماعي المطلوب، فليس من الضروري ان يبادر قوم معين الى اعادة اختراع امور سبق لأقوام أخرى ان توصلت اليها. لذلك تأتي أوالية الاستعارة لتساعد الاختراع وتكمله. ان المجتمعات لا تعيش منفصلة على ذاتها بل تحدث بينها صلات واحتكاك وعلاقات تؤدي الى انتقال بعض الأشكال الثقافية او بعض العناصر التقنية او الاعتقادية او الجمالية. الخ.. وبما أن الاستعارة تنتج عن الاحتكاك بين الأقوام فإنها تطرح مشكلات مهمة، منها مشكلات ذات طابع اجتماعي علائقي، لأن الاستعارة تفترض علاقات معينة بين قومين مختلفين، وأخرى ذات طابع نفسي ارتهاني يأتي من هيمنة ثقافة على ثقافة أخرى، ومنها أيضاً مشكلات ذات طابع ارتقائي تطوري او تغييري، لأن الاستعارة قد تؤدي الى تطور القوم. ان التفاعل، او التبادل الثقافي بين الشعوب، يؤدي الى عملية تثاقف قد تكون متكافئة فيتاح للقوم أن يأخذ ويعطي نتيجة للعلاقات القائمة او نتيجة للتجاور، لكن التثاقف قد يجري بشكل غير متكافيء، اذ يفرض القوم القوي ثقافياً بعض عناصر ثقافته على القوم الضعيف، فيصبح التثاقف تثقيفاً وهمينة وضغطاً، مما يوقع المجتمع الذي يأخذ في الارتهان للمجتمع القوي، الذي يعطي، وهذا ما يحدث عادة في حالة الاستعمار حيث يقوم المستعمرون بفرض معايير ثقافتهم على البلدان التابعة حتى يسهل عليهم استغلال هذه البلدان، او انهم يساهمون في تخلُّع المجتمعات التابعة عن طريق خلق فئات هامشية تستوعب الثقافة الاستعمارية وتشكل أدوات للاستعمار من ضمن الشعب المقهور. وقد يؤدي هذا الارتهان الثقافي الى حركات مناهضة للارتهان وللاستعمار تدخل في صراع قوي مع الثقافة الأجنبية عن طريق اعادة احياء ثقافتها التقليدية والتمسك بها لمواجهة الغزو الثقافي الخارجي. وقد يصبح هذا الصراع عنيفاً، والمقاومة قد تؤدي الى القوقعة والى رفض كل ما هو أجنبي حتى ولو كان ضرورياً لتطور القوم. وقد تكون المعارضة عن طريق الهروب الى الدين أو الى القومية العنصرية التي تشكل حماية للقوم ضد التخلع الثقافي الذي يحدثه الاستعمار.

نحو سوسولوجيا للثقافة العربية

اننا نكتفي بهذا القدر من المفاهيم والاشكاليات والطرائق التي تطرحها سوسيولوجيا الثقافة، وهي كما يبدو أمور نظرية من الضروري توضيحها في أبحاث متخصصة حول الثقافة العربية. ولكن لا بد لنا، كي يكتمل بحثنا، من اعطاء بعض التوجيهات لسوسيولوجيا الثقافة العربية على شكل أبواب من الضروري الخوض فيها بالتفصيل لكي تحل المعضلات التي تواجهها هذه الثقافة في المرحلة الحالية بخاصة، حيث يُفرض عليها التعامل مع أوضاع عالمية سريعة التطور قد لا تستطيع اللحاق

بهذا التطور اذا لم تعالج سوسيولوجية الثقافة العربية بالانفتاح المطلوب.

وأهم هذه الأبواب التي يجب تناولها هي الأبحاث التي تعالج وحدة الثقافة العربية التي تشكل القاعدة الأساسية للوحدة القومية. فسوسيولوجيا الثقافة العربية يجب ان تجري في إطار التعبير عن هذه الوحدة رغم التنوع الاجتماعي الناجم عن التجزئة السياسية من جهة، وعن اختلاف مصادر التثاقف من جهة أخرى. ان وحدة الثقافة العربية ناتجة عن وحدة تراكيبها الثقافية في شتى المجالات. كما أن العلاقة بين وحدة المجتمع العربي ووحدة الثقافة العربية هي علاقة جدلية ومتبادلة إذ لا يعقل ان نتوصل الى وحدة مجتمعية حقيقية دون وحدة ثقافية معينة. فهذه الوحدة الثقافية ليست بالضرورة مؤسسية، وانما تطرح نمطاً من التعامل الثقافي بين مختلف الأقطار العربية، ونمطاً من التعامل مع الثقافات الأجنبية. علينا ان نرصد هذه العلاقات لنحافظ على اتجاهات الإغناء والتثاقف الضروري ونجابه معاً علاقات الارتهان بجميع اشكالها. قد يكون ذلك من أكبر مهمات المثقفين في أمتنا العربية، وفي طليعة عمل مؤسساتنا الثقافية. وأبواب سوسيولوجيا الثقافة في أبحاثها الميدانية قد تعالج أيضاً مسألة الانفتاح على تراكيب الثقافة: هل تتحقق وحدة تكاملية بين العرب من شأنها اعطاء الأهمية والمبادرة لهذا التركيب الثقافي او ذاك؟ وهل يتطلع العرب الى التعمق في التكنولوجيا الحديثة من اجل استيعابها وتمثّلها لتخدم وحدة العرب وسعادتهم ورفاهيتهم أم أن «الميول التكنولوجية» أصبحت زياً من أزياء العصر عليها أن تخدم النخبة الحاكمة وحسب؟ وبعد، هل سيكون تقدم التكنولوجيا على حساب التراكيب الثقافية الأخرى أم سيكون في خدمتها؟ انها بالحقيقة مسائل بالغة الأهمية لا يمكن لغير السوسيولوجيا الثقافية ان تعالجها.

وهناك مسألة اخرى تتصل باللغة والمعتقدات والماورائيات، إذ لا يمكن لأي تثاقف تكاملي ان يحصل بدون خلق التوازن بين هذا التركيب المعتقدي والعقلانية. ان الانحطاط العربي وموجات الضغط والقهر التي عمت البلدان العربية، وانتشار الظلامية والتخلف والجهل، كلها جعلت العقلانية تتراجع وتحل محلها الخرافات والغيبيات والاشكالية والقدرية، وهي امور طارئة على حضارتنا وثقافتنا. لذلك من الضروري أن ندرس البنى الاجتماعية التي تحمل هذه الغيبيات وتحافظ عليها، وتنغلق أمام أية عملية تثاقف عقلانية بحجة عدم التعامل مع الأجنبي، من أجل تطويرها وازالة العوائق من درب هذا التطوير. هذه المسائل على حساسيتها، تشكل موضوع سوسيولوجيا الثقافة العربية. فهذا العلم الحديث ليس وضعياً وحسب، بل يمكنه ان يكون علماً تطويرياً، او علماً وحدوياً، لذلك يجب أن ندرس مسائل التكامل الاجتماعي ـ الثقافي بين الأقطار العربية بدقة من اجل المبادرة الى انماء التكامل هذا الذي يؤدي بالضرورة الى تطوير الثقافة في كل قطر.